10

جوهر الأخوة

أخواتي

ينحدرن

من أمات كاريبيات

ومالكي عبيد إسبان

من ملكات أفريقيات

وسادة استعماريين،

من بدو البربر

ومزارعين بروس

من فلاحات القرى

وإقطاعي الأرض،

من أغنياء

وفقراء،

من سود،

بيض

وبنيين

من مسلمين،

obeikandl.com

يهود،

نصارى

وهندوس.

لقد جمعهم

الإسلام، معاً

في هذا الزمان وهذا المكان.

لقد لامست حياتهن حياتي،

غيّرتها،

أثرتها،

باركتها.

ما بين الحجاب والجلباب، التودّد والزواج، الأطفال ونظام القيم الجديد، اكتشفت جوهرة أخرى في حياتي الإسلامية: الأخوّة شعرت بها في المسجد، عندما كانت همسات تحية السلام ـ السلام عليكم ـ وتلاوة القرآن تملأ الغرفة. شعرت بها خلال صلاة الجماعة عندما كانت أجساد النساء تلتصق معاً، كتفاً بكتف، يقرأن صلاتهن السرية، يركعن ويسجدن. شعرت بها في الاحتفالات بالمولود الجديد وفي الولائم، احتفالات النساء، الأطفال والطعام. شعرت بها خلال رمضان، عندما كنا نفطر معاً ونقف معاً لأداء صلاة التراويح الطويلة. التقارب، التضامن، الأمان والحب: الوهج الدافئ للأخوية التي تستند إلى ما هو أكثر من مجرد الجنس المشترك. لأن هذه أخوية الإسلام، أخوية ستتفوق على كل ما سواها، جوهرة ثمينة

ولامعة تضيء وجوه النساء عندما يتحدثن عن مشاعرهن نحو أخواتهن في الإسلام.

«تعتقد أنها لطيفة للغاية»

نشأت دون إحساس بأخوة حقيقية. ضمن مدّ وجزر السياسات الاجتماعية الناشئة، لم يكن هناك مساحة للعواطف والرومانسية الأنثوية.

حتى أكون عادلة، كانت لدي بضع صديقات مقرّبات عندما كنت مراهقة، لكننا لم نكن أبداً جزءاً من مجموعة كبيرة من الفتيات اللواتي يخرجن مع بعضهن دائماً، كان هناك الكثير من التنافس المتعلق بذلك. لهذا تشبثنا ببعضنا، سعيدات بأن نكون اثنتين، وربما ثلاثة معاً. كانت فتيات أخريات يعددن أننا نشكل تهديداً لهن يقلن دائماً عنا: «يعتقدن أنهن لطيفات للغاية!». لم يكن هناك بالتأكيد حب أخوي، مجرد غيرة، تفضيل النفس على الآخرين ونكد. كان يتم خيانة الثقة، عدم الوفاء بالوعود وسرقة الأصدقاء الحميمين.

لكن بالطبع، بعد أن قلت كل ذلك، كنا في معظم الأحيان مثل معظم الفتيات الأخريات في أنحاء العالم: ننهمك في النميمة ونتكلم عن نساء أخريات من خلف ظهورهن، أو أمامهن، وفقاً للمناسبة: «ينبغي أن ينظر بعض الناس في المرآة قبل أن يخرجوا من منازلهم!» أو «أفٍ، لا تسدي لنفسها أي صنيع بارتداء ذلك السروال!». لهذا، لم نكن ضحايا بريئات: كنا قاسيات دون رحمة أيضاً عند التقليل من شأن النساء الأخريات وإظهار ذلك في صحبتهن. لم يكن هناك وفاء، شعور بالتضامن، أو عناية ببعضنا: كانت كل فتاة وحدها.

ستدّل لمحة على معظم المجلات الموجهة للمراهقات والشابات على نوعية الذهنية التي يتم تشجيعنا على امتلاكها. تبقى الموضوعات الرئيسة ثابتة دون تغيير وتتناول الرجال، والجنس والأزياء. أو الجنس، والرجال والأزياء. أو الأزياء، والجنس والرجال. ربما مع بعض التبرّج وظهور الرجال بكثافة كبيرة. وتنفخ هذه المجلات كامل صورة «المرأة المتحررة»، وتقدّم نفسها على أنها مجلات تخص «المرأة العصرية». ألم تستبدل، في الواقع، أدوات التنظيف ووصفات فطيرة التفاح بأمور تافهة مثل الهوس بالمظهر، المكانة مع الجنس، الجنس، الجنس؟ لا عجب أن معظمنا ليست لديها أبداً شيء مهم تتكلم عنه إذا كان ذلك ما نصبو إليه!

وبرغم أن الفتيات اللواتي خرجت معهن كن مثل أندادنا فيما يخص مكر المراهقات، إلا أننا كنا نعد أنفسنا أكثر ذكاءً من أغلبية الفتيات اللواتي عرفناهن، فتيات نادراً ما قرأن كتاباً أو مقالاً، شاهدن الأخبار، طرحن أسئلة، شكّلن آراءً أو استكشفن ما وراء عوالمهن الصغيرة الخاصة بهن. برغم وجود الكثير من الأسباب الاجتماعية التي كانت تمنع الفتيات من تطوير أنفسهن، إلا أننا لم نكن نبالي: كل ما كنا نعرفه أننا نريد تحدياً، ولم يكن «الاستمتاع» مع الفتيات الطريقة التي يمكن الحصول بها على ذلك.

عندما كانت سنوات المراهقة تلك تقترب من نهايتها، أصبحنا نقضي المزيد من الوقت برفقة رجال راشدين. كانت الصداقات مع هؤلاء الرجال البالغين مختلفة عن تلك التي أقمناها مع طلاب المدارس. برغم أنه كان نادراً وجود فتاة تستطيع الدخول في نقاش جدّي يتناول أي شيء عدا الشباب، والعلاقات والملابس، كان الرجال متعددي المواهب: كانوا يستطيعون مناقشة القضايا الراهنة، والسياسة، والفلسفة والأشياء الأكثر أهمية في الحياة.

كان لهم آراء ولم يكونوا خائفين من التعبير عنها أو مناقشة بنودها. أيضاً، لم يكونوا يقضون الأمسيات في الكلام عن أصدقائهم والنميمة بشأن حياة الناس الخاصة. لم يكونوا يتأوهون من عدم وجود نساء جيدات، يشتكون من صديقاتهم أو حجم بطونهم المنتفخة. بالتأكيد، كانت لديهم نزعة للحديث بشكل مطوّل عندما يتعلق الأمر بالرياضة أو السيارات، لكن على العموم، كانت صحبتهم ممتعة ومثيرة.

لكن، كما ذكرت سابقاً، نادراً ما كانت الصداقات مع الرجال تخلو من مشاعر الانفعال الجنسي. إذا لم تكن الفتاة تضمر مشاعر خفيّة نحو الشاب، كان دون شك يضمر مشاعر خفيّة نحوها، مشاعر تنتظر فرصة لتعبّر عن نفسها. لهذا، برغم أن قضاء الوقت مع الرجال كان أكثر متعة بطرق عديدة، إلا أنه كان سيفاً ذا حدّين: تكون الفتاة حذرة دائماً، وينبغي بها عدم إظهار الكثير من اللحم، وألا تكون مفعمة بالحيوية، «متحررة» كثيراً، خشية أن تسيء فهمها الصديقة الحميمة، أو الأسوأ من ذلك، الشاب نفسه. نتيجة لذلك، لم تكن هناك ثقة مطلقة في الطبيعة الأفلاطونية لتلك العلاقة، صديقة حميمة خارج البلدة، السير على الأقدام إلى المنزل في آخر الليل، قضاء ليلة ممتعة خارج المنزل، كل هذه فرص ليقوم الشاب أخيراً بخطوة ويخبر «صديقته» حقيقة مشاعره. غالباً، كان يعقب ذلك انهيار كامل لتلك العلاقة، كيف يمكن أن تبقى الأمور على حالها وهي تعرف أنه ينظر إليها على ذلك «النحو»؟

الصديقات

على أي حال، عندما ذهبت إلى الجامعة، وجدت نفسي بين شابات متحفّزات فكرياً وعاطفياً واللواتي لا يقضين اليوم بطوله يتكلمن من وراء

ظهور بعضهن. كانت تلك سيدات شابات يتساءلن مثلي عن الأشياء، واللواتي يحللن المواقف، يجادلن آراءهن بشكل واضح. خضنا في أحاديث سياسية وفكرية طيلة الوقت، واشتركنا في أفكارنا ومشاعرنا حول قضايا شخصية أيضاً. اختبرت الكثير من النساء هذا التغيير في صداقاتهن الراشدة مع نساء أخريات.

على أي حال، أحد الأشياء التي ذكرتها معظم الأخوات عند الحديث عن صداقاتهن قبل اعتناق الإسلام كانت في مستوى تكرار الغيبة، والنميمة والإشاعة. ليس ممكناً تحديد عدد «الساعات المهدورة» في حديث النساء عن بعضهن أو أشخاص آخرين، نقل الأسرار، نشر الإشاعات، الأكاذيب، التلفيق والتي تتنكر بزي نصيحة ودّية أو آخر الأنباء. كما قالت سارة: ستقولين: «لست أنقل الكلام أو شيئاً من هذا القبيل، لكن وبرغم أنه من الممتع أن تكوني الشخص الذي «يكشف الفضائح»، وتجعلين الجميع يضحك من إهاناتك وسخريتك الجارحة، ليس الأمر نفسه عندما تكونين الطرف المتلقي، وتتناقل الأخريات أخبارك، ويهزأن من ذوقك في الملابس والرجال ويمزّقن حياتك إرباً فيما يتناولن أكواباً من الكابتشينو. لكن غالباً ما يكون هذا شيئاً لا نوقف بعضنا عن القيام به، نقع فيه بشكل طبيعي ويتآمر الجميع على إبقاء هذا التقليد النسائي الرائع على قيد الحياة.

برغم وجود حالات عن رجال ونساء يتواصلون مع بعضهم بطريقة ناضجة بعيدة عن الجنس، إلا أنني وجدت في ضوء تجربتي أن هذه العلاقات قليلة ومتباعدة. يبدو الأمر كما لو أن الرجال يأتون بكامل طاقتهم ـ التوستيرون (الهرمون الذكري)، الفحولة، ثقتهم بأنفسهم

ـــ التـي تتفاعل مع الطاقـة الأنثوية وتجعل النسـاء يبـدأن تحريك جفون عيونهن، يلعبن بشعرهن، يغيّرن نبرة صوتهن، وتختفي فجأة تلك الرفقة، التضـامن وتهيمـن الطاقـة الأنثوية. يصـبح هنـاك توتر جديـد في الجو والرجال في مركز الاهتمام.

أخبرتنـي كلـير عن حادثـة تذكّرها بكل هـذا. جاءت صـديقة للعائلة لزيارة والدتها واسـتطاعت سـماعهما تتحدّثان. فجأة، تغيّرت نبرة المرأة بشـكل كامل ـ أصـبحت لعوباً ـ ولم تسـتطع معرفة السـبب. ثم اكتشـفت الأمر: لقد دخل رجل إلى الغرفة. قالت: «لا تسـتطيع بعض النسـاء تمالك أنفسهن أمام الرجال، وترين التغيير الذي يطرأ عليهن. كما لو أنها ليست الشخص نفسه، الأمر متأصل للغاية».

إنه حضـور الذكر الذي يجعل النسـاء يعدون بعضهن منافسات لبعض في جذب انتباهه، ويجعلهن يتبارين في إتقان لعبة اللقاء. وإذا بقي الرجال يلعبون هذا الدور المركزي في علاقات النساء، فسيبقى التضامن الحقيقي والأخوة حلماً ضبابياً، ومجرد شعار على قميص.

محبة الأخوات ...

في الإسـلام، العلاقـات بين النسـاء محكومة بقواعد ونمـاذج الأخوة الإسـلامية. يتم تعليم المسلمين أن يعدوا بعضهم إخوة وأخوات في الإيمان وأن يحبّوا بعضهم في الله.

كما يقول الله في القرآن:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

في حديث ورد في صحيح مسلم، أنه يكفي أولئك الذين يحبّون بعضهم في الله شرفاً، رجالاً ونساءً على حدٍ سواء، أن يعرفوا «أن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي؟ اليوم أظلهم بظلّي يوم لا ظلّ إلا ظلّي».

للأخوات حقوق على بعضهن، تبادل تحية السلام، زيارة بعضهن عند المرض، إسداء النصح لبعضهن، من ضمن أشياء أخرى. والآداب نفسها التي تنطبق على علاقاتنا الأخرى تنطبق على الصداقات بين النساء، نحترم بعضنا، لا نتكلم سوى بالخير عن بعضنا، وأن نكون صادقات، لطيفات وكريمات. بالفعل، الحديث مليء بالنصائح حول كيفية تعاملنا مع بعضنا كإخوة وأخوات في الإسلام. أحد الأمثلة على ذلك قول الرسول ﷺ: «إيّاكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً».

على أي حال، هناك عوامل أخرى تجعل الأخوة الإسلامية قوة لها شأنها. طريقة العيش الإسلامية ـ البنية الاجتماعية، الفصل في المكان بين الذكور والإناث، الحجاب ودور العائلة ـ مناسبة تماماً لعقد صداقات وثيقة تقوم على الثقة والمساندة بين النساء.

في البنية الاجتماعية الإسلامية، يعد المنزل مجالاً أنثوياً. إنه مسؤوليتها وهي الملكة فيه. هناك تنزع حجابها، تتخلى عن حذرها، تقضي الوقت مع المقرّبين لها، تكون على سجيتها. هناك تشديد كبير أيضاً على الكرم وحسن الضيافة، هناك ثواب في إطعام ضيوفك، ويتم حض المسلمين على زيارة بعضهم. لهذا من الشائع عند الذهاب لزيارة منزل إحدى الأخوات

أن نجد أنه مليء بنساء يقرأن، يسترخين، يطهين، يتحدّثن على سجيتهن. نجد فضاءً خاصاً بالنساء فقط، حرم ليس فيه رجال. لا يستطيع الرجال دخول غرفة فيها نساء أخريات، ينبغي عليهم البقاء بعيداً واستدعاء زوجاتهم أو أطفالهم إذا كانوا بحاجة إليهم. ليس لدى معظم الرجال مشكلة في قضاء زوجاتهم وقتاً مع الأخوات بدونهم، فيما يكونون يقضون الوقت مع الإخوة.

عامل آخر يؤثر بشكل كبير على علاقاتنا هو حقيقة أن الرجال والنساء لا يختلطون اجتماعياً. تم توضيح ذلك سابقاً، ولا شك بأن عدم الاختلاط أحد الأسباب التي تجعلنا نحن النساء قريبات كثيراً من بعضنا.

نظراً لعدم وجود رجال في تجمّعاتنا الاجتماعية، لا نشعر بضرورة توخّي الحذر: لا يوجد أحد ينظر إلى مقاساتنا، يقارننا بغيرنا ويحكم علينا. لهذا لا نعد أننا ننافس أو نضاهي بعضنا، ليس هناك ما نتنافس عليه.

لا نقلق أبداً من انجذاب أزواجنا إلى صديقاتنا، لأنهم لا يقضون وقتاً معهن، وربما لن يروهن دون حجاب أبداً.

يخطئ الكثيرون في اعتبار تحفّظ النساء المسلمات أمام الرجال بأنه خجل. برغم أن ذلك ليس بالضرورة صحيحاً، لكننا، كقاعدة، لا نتصرف بطريقة ودّية غير رسمية مع الرجال. لا نتبادل الدعابات معهم، ولا ندخل في أحاديث ودّية معهم ولا نتودّد بكل تأكيد إليهم. نحتفظ بكامل شخصياتنا، دعاباتنا، اندفاعتنا، مزاحنا، حساسيتنا، لطفنا، غنائنا ورقصنا لأولئك الأقرب إلينا: عائلاتنا والنساء الأخريات. تظهر هناك

شخصية الأخت الحقيقية، حيث لا ضرر أو سوء فهم. كنساء، نتعلّم معاً، نحتفل معاً، نعمل معاً ونمرح معاً في بيئة خالية تماماً من القلق والمشكلات المحتملة، والفتنة. نحن أحرار بأن نكون على سجيتنا ونثق ببعضنا، طالما أن الطاقة المتعلقة بالذكور لم تعد جزءاً من فضائنا الاجتماعي.

بين أخوات، بين صديقات

تغيرت الكثير من الأشياء منذ اعتنقنا الدين، معتقداتنا، ملابسنا، طريقة معيشتنا وعلاقاتنا مع النساء الأخريات. عندما التزمنا تعاليم الإسلام، كنا نعرف أن الخروج مع الرجال ليس عملاً صائباً. لهذا كان علينا أن نعيد تكييف علاقاتنا مع النساء اللواتي نعرفهن. كان علينا أن نعمل لاكتساب صديقات، التحدّث فقط مع النساء، ونتعلّم كيف نتواصل كأخوات في الإسلام.

بالنسبة لبعضهن، كان الأمر سهلاً: توافقن مباشرة مع «الأخوات». وجدت أخريات الأمر صعباً: كان غياب الرجل غريباً، وكانت الطريقة التي تواصلت بها الأخوات مع بعضهن مختلفة تماماً عمّا هو سائد في الجاهلية. كبداية، كانت الأخوات يبتسمن دائماً لبعضهن. كن سعيدات دائماً. كن مهذبات دائماً. سواء التقيت بهن في أروقة الحرم الجامعي أو المُصلّى نفسه، كن دائماً يُلقين السلام، يبتسمن، وغالباً ما يصافحن ويعانقن بعضهن أيضاً. لقد كن مختلفات فحسب.

ثم بعد مدة من الزمن، بدأنا نتغير أيضاً. وجدنا أنفسنا نبتسم لكل الأخوات اللواتي نلتقي بهن، نحييهن بالسلام أيضاً. كان هناك شيء لطيف وإيجابي للغاية بشأن الطريقة التي تعامل بها الأخوات بعضهن.

كنت أنا وحنّة ما نزال نمزح مع بعضنا دون رحمة، لكننا لم نفعل ذلك مع أخوات أخريات، كن يبدون لطيفات للغاية. كان ذلك مرتبطاً بحقيقة أنه برغم أننا قد اعتنقنا الإسلام، إلا أن معظمهن كن فتيات آسيويات، وقد ولدن مسلمات. كنت أرى أخوات من أعراق مختلفة يتصرفن بشكل مختلف قليلاً مع بعضهن. على أي حال، لم تتغير بعض العوامل، بغض النظر عن الخلفية العرقية للأخوات، كن ودودات، وهادئات، ودافئات ومرحّبات كثيراً. وكان هذا بالتأكيد شعوراً جديداً. لم يكن يسعنا سوى الردّ على التحية بمثلها.

بوصفنا أخوات شابات ما زلن يتلقين العلم طيلة الوقت، كنا نرى بعضنا أساساً بعد الدروس وفي نهاية الأسبوع. كنا نقضي ذلك الوقت في زيارة بعضنا، تبادل أطراف الحديث، الإصغاء إلى أشرطة عن الإسلام أو الذهاب للتسوق في أسواق شارع غرين المختلفة. كنا نزور بعضنا، ننام في منازل الأخوات الأخريات ونبقى مستيقظات حتى نتناول طعام السحور ويحين وقت صلاة الفجر. يمكنني أن أقول بصدق: إننا لم نكن بحاجة لتواجد الرجال حولنا. كنا سعيدات معاً، قانعات بصحبة بعضنا، مطمئنات.

كنت قد رأيت مراهقات مسلمات في مجتمعنا يمررن بالتجارب نفسها التي خضناها شابات اعتنقن الإسلام، ولحسن الحظ أنهن لم يتأثرن بالعوامل التي أفسدت العلاقات خلال مدة مراهقتنا. كن يمضين أيضاً وقتهن معاً، يدرسن دينهن موضوعات أخرى ويتكلمن عن خططهن للمستقبل. كن يزرن منازل بعضهن أيضاً، يذهبن إلى المسجد والتسوق معاً ولا يسهبن في الحديث عن شيء ما مطولاً! ونعم، كن يتكلمن أيضاً

عن الأزياء وكل تلك الأشياء الخاصة بالفتيات! لكن بخلاف مجتمعات أخرى، لا تعزل المراهقات والعازبات أنفسهن عن الأكبر سناً والمتزوجات. أساساً، يحضرن الصفوف والتجمّعات نفسها مثلنا. وبرغم أنهن غالباً ما يختفين في مناطق منزوية من المنزل لتبادل الدعابات والمزاح، إلا أنهن يظهرن متبرجات مفعمات بالحيوية، ويحببن دائماً الجلوس معنا والإصغاء إلينا، ويتبادلن وجهات النظر، يطرحن الأسئلة ويلتقطن حكمة أمهاتهن وصديقات أمهاتهن. ولا يبتعدن أبداً أيام العيد؛ لأنهن يعرفن أن أمهاتهن يعلمن كيف يقضين وقتاً ممتعاً حقاً!

حفلة الزفاف التي وصفتها سابقاً مثال جميل عن الطاقة الأنثوية الرائعة التي تتغلغل في مناسباتنا الاجتماعية. مع وجود الرجال في غرفة أخرى، أو في حالة أفضل، في منزل آخر، تحتفل الأخوات بزفاف صديقتهن بالأغاني، والدموع والضحكات. يعدّ الزواج تجربة تجمعنا معاً وتضيف بعداً جديداً لعلاقاتنا مع بعضنا. أساساً، حالما يقترن زوجان، يختفيان من المشهد الاجتماعي مدة من الوقت، وينشغلان ببعضهما عن الإخوة والأخوات. يبقى بعض الأزواج على تلك الحال، مرتاحين مع بعضهما، ولا يرغبان بإقامة الكثير من العلاقات الاجتماعية. على أي حال، غالباً ما تعود الأغلبية العظمى إلى المشاركة في الأحداث، المسجد، حفلات العشاء، الاجتماع معاً، حلقات السباحة، الرياضة والخروج في نزهات. بالمحصلة، تكون علاقة الزواج التي تسودها المحبة رائعة، لكن برغم ذلك لا شيء يضاهي اجتماعاً جيداً للأخوات لتقوية الإيمان، وتنشيط الذهن والضحك قليلاً.

يُضيف إنجاب الأطفال بعداً آخر للروابط بين الأخوات. بخلاف بعض الأمهات للمرة الأولى، قلّما نجد أنفسنا في موقف نكون فيه الوحيدات في

مجموعاتنا اللواتي أنجبن طفلاً وعليهن اختبار العزلة التي ينطوي عليها ذلك. لدهشة الكثير من القابلات، لم أكن بحاجة أبداً لحضور صفوف خاصة بالولادة أو الانضمام إلى مجموعة من الأمهات؛ لأن الأمهات الخبيرات كن يحطن بي من كل جانب، واللواتي أجبن عن أسئلتي بشأن الحمل، والولادة والعناية بالطفل. بالنسبة للكثيرات منا، نشأ أطفالنا معاً، في منازل الأخريات، وكانوا يدعوننا «خالة». كنا غالباً نقوم بتنظيم حفلات، تجمّعات ونزهات للأطفال معاً، سواء كان ذلك ضمن بضع صديقات فقط أو للمجتمع بأكمله. أتذكّر أحد «أيام الرياضة» الذي نظّمه المعلمون في دار حضانة ابني في منتزه جميل بالمنطقة. برغم أنه كان منتزهاً عاماً، إلا أنه كان موزّعاً إلى أقسام بصفوف من الأشجار وأحواض الزهور. كان يوماً رائعاً: جاءت كل الأخوات يحملن الطعام، الشطائر، الدجاج المقلي، الخبز الهندي، البطيخ والفراولة، والمشروبات، متلهفات لإسعاد أطفالهن في أول «أيام الرياضة» الخاصة بهم. كان الطقس رائعاً وانتاب الجميع شعور بالسعادة الغامرة، وحالما انتهت سباقات الأطفال، بدأت سباقات الأخوات، ولم يتوقفن! شاركنا في سباقات فردية، وأقمنا سباقات تتابع، وسباقات قفز ووثب، شعر الأطفال بإثارة كبيرة. لا أعرف ماذا كانت ردة فعل عابري السبيل الذين استطاعوا إلقاء نظرة خاطفة علينا من منظر كل تلك «النساء المحجّبات» اللواتي يستمتعن بوقتهن كثيراً.

مجال آخر للتعاون هو نطاق العمل. في غالب الأحيان، عندما تعمل النساء في مجتمعنا، يعملن في بيئة نسوية سواء كان ذلك في مدرسة الجالية أو إدارة عملهن الخاص. تستمتع الأخوات اللواتي يعملن في مدرستنا بمزايا الأخّوة كل يوم. تعمل الأخوات الأخريات المستقلات معاً

بتلك الروح نفسها من التعاون عندما نقوم بتنظيم المناسبات معا، أيام تجميل، أسواق ونزهات عائلية في الهواء الطلق. أمتلك ذكريات رائعة عن مناسبات عديدة كنا قد نظّمناها في الجاهلية، مع خبيرات التجميل في الطابق الأعلى، وعاملات تدليك في الغرفة الخلفية، ومزيّنات الشعر في إحدى غرف النوم، فنانة الضفائر والحنّة في حجرة الجلوس والأخوات اللواتي يهتممن بالطعام في المطبخ. وكان المنزل نفسه مليئاً بالأخوات اللواتي حضرن لتجميل أنفسهن، دعم الأخوات في جهودهن أو للحصول ببساطة على استراحة من الأطفال والاسترخاء. برغم أن تلك الأيام كانت مفعمة بالنشاط، إلا أن شعورنا كان دائماً جيداً بعدها، خاصةً إذا حصلنا على بعض الفائدة أو أجرينا نقاشاً مثمراً. ولطالما أرادت الأخوات أن يعرفن متى ستتم إقامة الجولة اللاحقة.

سواء كان ذلك في منازلنا أو في المسجد، في الوظيفة أو العمل، في الحيّز الخاص بنا، نكون أحراراً وواثقات من أنفسنا دون حرج، لا نخشى أن يأخذ أحد عنا أفكاراً خاطئة، أن يحكم علينا، أو أن نرسل إشارات مشوشة له. في تلك الاجتماعات، سواء كانت رسمية أم غير ذلك، يمكن للأخوات أن يبقين على سجيتهن، الاستفادة من تجارب بعضهن ومناقشة قضايا وثيقة الصلة بتلك الموضوعات. ضحكنا معاً، بكينا معاً وتعاملنا مثل شقيقات.

«ذهبت إلى المسجد وكان هناك اجتماع للأخوات هناك. كل ما أتذكّره هو ابتسامات جميع من كان هناك، كل الأخوات، كل النساء، جميعهن جميلات ما شاء الله بطريقة ما، حالما ينزعن عنهن النقاب. كنا جميعاً صادقات للغاية. كان ذلك إلهاماً. لم يسبق لي أن وُجدت في حلقة كلها نساء مثل تلك من قبل ...» سارة.

اختبرت والدتي بنفسها حياتنا الاجتماعية المفعمة بالحيوية عندما زارتني من الخارج، تمت دعوتها إلى معظم الأمسيات في أثناء إقامتها معي، وأحبت «الأخوات»، كما دعتهن. كامرأة، أثار إعجابها الدفء، والضحك والرفقة التي تجمعنا، وعددتها شيئاً جميلاً وخاصاً. عندما أشفق الناس على والدي لأن ابنته الذكية المفعمة حيوية ونشاطاً قد اعتنقت الإسلام، وأخفت نفسها خلف خمار، كان يقول لهم دائماً: ألا يشعروا بالأسى عليّ، وأن لدي الوقت الكامل حتى لا أمضي قدماً في تلك الحياة الكئيبة التي كان يبدو أنهم يتوقعونها.

لا شيء سوى الحب

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

تمتد الروابط بين النساء المسلمات إلى ما هو أبعد من الصلات بين الإناث. إنها تشمل نظرة مشتركة، أهدافاً عامة ومعتقداً يوحدهن بطريقة لا تستطيعها الحسابات الدنيوية. كوننا أخوات في الإسلام، نبذل أقصى جهدنا لنحب بعضنا في الله. هذا يعني أن الأسباب التي تدفعنا لنحب شخصاً ليست مصطنعة أو مادّية: نحب أختنا لأنها تُذعن لله. يتفوق هذا الحب لأسباب دينية وروحية على حدود العرق، والعمر، والثروة والطبقة الاجتماعية.

قالت لي سارة: «في الجاهلية، نتسلّى مع مجموعة معينة؛ لأننا نرى فوائد محددة في ذلك لأنفسنا. في الإسلام، الأمر ليس كذلك. قد يكون هناك أخت لا تعتني بمظهرها أبداً، وحالتها مزرية تماماً، وقد يكون لها

كل تلك السمات التي لم تكوني تقدرينها في الجاهلية، لكن ربما تكون شديدة الورع، وربما تكون مستمعة جيدة، أو شخصاً تستطيعين التحدّث إليه عن مشكلاتك، والتي ربما تسديك نصيحة جيدة طيلة الوقت. ولا تهتمين بما قد تعتقده امرأة أخرى عن صديقتك الآن؛ لأنكِ تعرفين أفضل سبب لتحبي شخصاً وأن ذلك ينبغي أن يكون في الله.

تستلزم محبة أحد في الله أن تحبي كل ما هو إسلامي في شخصيتها، محبتها وعبادتها لله، أخلاقها، تأثيرها الإيجابي، إخلاصها، جدارتها بالثقة وفهمها. على أي حال، كما هو الأمر مع أي أفراد آخرين، هناك عوامل أخرى تقرّب بعض الأخوات من بعضهن، مثل التجارب المشتركة، التاريخ المشترك، الثقافة، روح الدعابة أو الاهتمامات الفكرية والهوايات.

لكن بالطبع لا تستطيع إحدانا أن تتوقع التوافق مع كل أخت. ماذا عن الاختلافات الشخصية أو عدم وجود عوامل انجذاب؟

شرحت سارة: «حتى إذا لم تكوّني صداقة مع مثل تلك الأخوات، إلا أنكِ تحبينهن؛ لأنهن يُذعنّ لله ولأنهن أخوات في الإسلام، وأحب ذلك الإخلاص. بالنسبة لي، هذا هو الشيء الوحيد الذي قد يجعل شخصاً ما مخلصاً: القيام بأشياء من أجل الله. هذا إخلاص صافٍ ونية صافية. تشعرين بوجود ذلك الإخلاص بين الأخوات».

بالفعل، هناك الكثير من الحب، الكثير من الحب الواضح، بين الأخوات. ترين ذلك في ابتساماتهن، تسمعينه في ضحكاتهن وتشعرين به، بشكل يكاد يكون حقيقياً، في الهواء، في الجو. عبرّت عالية عن مشاعرها

نحـو أخواتها بهـذه الطريقة: «أحب أخواتي أكثر من أي شـيء، حتى أكثر من عائلتي».

«تابعت قائلة: «أكون بغاية السـعادة في أيام مثل هذه. عندما أنضـم ـ كاحلاً إلى كاحل ـ إلى أخواتي، عندما أصـلّي لمولاي، أصـلّي بغض النظر عمّـن يكون بجانبـي، أو أمامي أو خلفي، لأن الله جمـع بيننا مجدداً وأننا سنكون معاً في الجنّة، إن شاء الله».

وهـذا غريب، لكن الأوقات التي كان فيها قلقي شـديداً على ذلك الحب هي تلك الأوقات التي كنا فيها معاً نسعى لاكتساب المعرفة، أو نتلو القرآن أو نصلّي صلاة العشاء أو نناقش أحد أوجه الدين. في أوقات مثل هذه، عندما تكون العيون لامعة والقلوب خاشعة بذكر الله، يمكن أن تشعري بقلبك يمتلئ حباً لأولئك الذين من حولك، أخواتكِ، صحابتكِ في هذه الرحلة.

الثقة

سألت أم محمد عن مشاعرها بشأن الأخوة وقد ذكرت «الثقة» بوصفها إحدى المزايا الرئيسة لصداقاتها في الدين.

قالت لي: «كانت لدي صديقات جيدات مقرّبات مني في الجاهلية، لكن في الإسلام، شعرت أنني أستطيع الوثوق بالأخوات أكثر مما وثقت بالنساء من قبل. أشـعر أنهن، وقبل كل شيء، يخشين الله، وأنهن لن يؤذينني بأي طريقـة كانت. لقـد كان لي صـديقات [في الجاهلية] وكنـت مقرّبة كثيراً منهـن سـنين طويلة، لكني شـعرت أنني أسـتطيع قول أشـياء للأخوات لا يمكنني قولها لهن. شـعرت بأنني أسـتطيع أن أكون صريحة للغاية معهن،

وأن هنـاك ثقة كبيرة وانفتاحاً بيننا. وشـعرت بالسـعادة مع كل الأخوات اللواتي التقيت بهن، كانت تلك أخواتي. لم يعد الأمر أنني وحيدة كما كانت الحال في الجاهلية، لكني شعرت بالحب والقبول من قبل الأخوات».

«الحمـد لله، عندمـا اعتنقت الإسـلام، وجدت صـداقة حقيقية. أسـتطيع الذهاب إلى أي أخت [ضـمن المعقول] وطلب أي شـيء أو السؤال عن أي شيء، وسوف يشعرن بالسعادة للإجابة عن أسئلتي. ربما تكون قضـية شخصية، وربما تكون قضية مالية. في الجاهلية، لم أكن أسـتطيع أبـداً الذهـاب إلى أيٍ من صـديقاتي وطلب المال منهن، وكان من الأفضل الاستغناء عن ذلك» عزيزة.

لأن سلوكنا محكوم بالإرشادات الإسلامية، لدينا جميعاً المعايير نفسها ونعـرف جميعنا نوع المعاملة التي نتوقعها من بعضـنا. في الجاهلية، غالباً ما كانت الأسـرار تنتشـر، لكن لا خوف من حدوث ذلك مع الأخوات. نثق ببعضـنا، لن نكذب على بعضنا، لن نحاول خداع بعضنا، أو نغتاب بعضنا، ولن نحاول إلحاق الأذى ببعضنا بأي طريقة. ولأننا نشترك في هذه القيم، نسـتطيع الاسترخاء بصـحبة بعضـنا، مطمئنات من فقدان الثقة، وسوء الظنّ والشكوك.

المساواة

«في الجاهلية، كنا ننظر إلى منازل الناس، إلى مكانتهم الاجتماعية، إلى مظهرهم. وإذا كان الشـخص لا «يبدو مناسـباً»، فلن يستطيع الذهاب إلى الحفلة معكِ. في الإسـلام، لا يهم سواء كنتِ طويلة أم قصيرة، جميلة أم قبيحة» أم محمد.

في مجتمعنا، لا تمييز أو تنافس في معاملة الأخوات لبعضهن على مقتنيات مادّية. بين الأخوات (والإخوة)، الصغيرة تتكلم إلى الكبيرة، الغنية تجلس مع الفقيرة، التي اعتنقت الإسلام تتعلّم ممن ولدت مسلمة. لأننا نحب بعضنا في الله، لا نختار صديقاتنا وفقاً لمظهرهن، أو مكانتهن أو ثروتهن.

«صديقاتي لا ينشغلن الآن بأنفسهن تماماً، ولم يعد الأمر يتمحور «كله حولي». من قبل، كان لدي مجموعة متنوعة من الصديقات من خلفيات مختلفة. لكني أقول: إن هناك أشخاصاً لم أكن لأخصص لهم أي وقت في الجاهلية ولم يكونوا يخصصون أي وقت لي. ربما كانوا يستخفّون بي في الجاهلية أو ربما كنت أستخف بهم. لكننا صديقات، ونحن أخوات الآن، ونتكلم بالمستوى نفسه: نحن متساويات» سارة.

الإسلام عامل مساواة رائع، وبين الأخوات وحدها المعرفة في الدين هي التي تجعل الأخت تحظى بالاحترام الأكبر. نحترم أيضاً الأخوات الكبيرات في السن، «الخالات»، وهن يحترمننا بالمقابل. على أي حال، لا يمكن مقارنة مثل هذا الاحترام بالغطرسة أو التكبّر، سواء في الدين أو الأخوة التي تربط بيننا.

الأخلاق

سبب آخر لقوة الأخوة بيننا هو أننا نعامل بعضنا جيداً، بأخلاق عالية، وفقاً لإرشادات النبي محمد ﷺ. من النادر أن تكون هناك أخوات يتحدّثن إلى بعضهن بطريقة مؤذية، أو سخرية وفظاظة. ونادراً جداً رؤية

أخوات يصرخن على بعضهن يشتمن أو يتجادلن. لا تصل الخلافات في وجهات النظر إلى تلك المرحلة. وإذا وصلت يوماً، ينتهي الأمر بالأختين أن تطلبا الصفح من بعضهما وتلتمسان عفو الله. قال النبي ﷺ في حديث: «لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصدّ هذا ويصدّ ذاك وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». ومن غير الجائز عدم الكلام مع المسلم ثلاثة أيام، ويوجد حافز قوي للإصلاح فيما بينهما. غالباً ما تتكلم الأخوات بشأن أي قضية قد تنشأ بينهن، ولا يرغبن بأن يحملن أفكاراً شريرة في قلوبهن.

تمنعنا أخلاقنا أيضاً عن الغيبة والنميمة على بعضنا أو الإصغاء لشخص آخر يقوم بذلك. نعبّر أيضاً عن محبتنا لبعضنا بالكلمات، وهذا ما أمر به الله ورسوله ﷺ. تتبادل الأخوات الهدايا، يساعدن بعضهن يُسدين النصح لبعضهن، يُطعمن بعضهن، ويزرن بعضهن عند المرض، يصلّين ويتضرعن لبعضهن ويحاولن الوجود بجانب بعضهن، كل ذلك من ضمن روح الأخوة الإسلامية.

«لدي الكثير من التجارب الجيدة مع الأخوات عندما اعتنقت الدين. أخوات سيمنحنني آخر قرش يملكنه دون إعلامي، والقيام بأشياء مثل تركها تحت وسادتي. لدي الكثير من الأمثلة الجيدة حقاً، نماذج الأدوار الجيدة فعلاً عندما اعتنقت الدين. الأخوات اللواتي كن قويات جداً جداً حينها، وما زلن، ما شاء الله، قويات جداً الآن ... لقد كن مثل الأوكسجين بالنسبة لي» غانية.

كما هي الحال مع أي صداقة، هناك الكثير من الأسباب التي تجعل بعض الأخوات يتأقلمن مع بعضهن بشكل أفضل مما يفعلن مع أخوات أخريات،

لكن جمال الأمر، أن الأخلاق التي نتعامل بها مع تلك الصديقات المقرّبات نفسها التي نتعامل بها مع الدائرة الأوسع من الصديقات. لكل أخت حقوق في الإسلام وهذا يضمن أنه حتى إذا لم تندمجي بالضرورة مع أخت ما، فإنك برغم ذلك ستعاملينها بكل احترام وتقدير.

«من الواضح أنكِ ستقابلين أشخاصاً في الحياة لا تتوافقين معهن، ولا يصبحن أفضل صديقاتكِ. علّمنا الإسلام أن للجميع حقوقاً وأن عليك منحهن حقوقهن» أم محمد.

جوهر الأخوّة

«نبذل جميعنا قصارى جهدنا من أجل الشيء نفسه، ونرغب جميعنا بالشيء نفسه، إن شاء الله» عالية.

يشيد هذا الكتاب بأخواتي الرائعات. لقد كن مصدر إلهام له، وجزءاً من تأليفه. من خلال قوتهن وحيويتهن، كنت قد اختبرت حياة لم أكن أعتقد أنها ممكنة أبداً: حياة مع أخوات أحببتهن ووثقت بهن. إنها حياة طيبة. إنها حياة نبيلة. إنها الحياة التي أحب. الأخوة الإسلامية شيء خاص. إنها تتجاوز التنوّع، تتجاوز الطبقة الاجتماعية، تتجاوز كل أنواع الأشياء الدنيوية. إنها تعني التقارب، الدفء، وهي رقيقة وقوية. إنها لا تشبه أي شيء آخر؛ لأنها تستند إلى أسس شديدة الصلابة: الحب في الله.